ظاهرة القلق في شعر صالح الشرنوبي
دراسة موضوعاتية

دكتور/ حمد بن علي سويد الجليمي
الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية
كلية الآداب، جامعة الملك فيصل بالأحساء

المستخلص

يتناول هذا البحث ظاهرة القلق في شعر صالح الشرنوبي، ويعالجها وفق المنهج الموضوعاتي، الذي يُعنى بتتبع الموضوع الرئيس، ورصد موضوعاته الفرعية، وبيان دلالاته المتنوعة، ومدى انسجامها مع مضمونه، فالشرنوبي عاش حياة قلقة، عانى فيها من الاغتراب والعزلة، وذاق مرارة الشعور بالحسرة والموت، وتألّم من جفوة الأهل والأصدقاء، وصدّ المرأة ونفورها منه، واكتوى بنار الفقر والجوع، فانعكس ذلك على نفسيته، فدخل في صراع مع ذاته، وحاول التشبّث بطبيعته الروحانية المتفاوتة، وناقش قضايا مجتمعه، وصوّر ارتداداتها المفزعة على واقعه، كما لجأ إلى الرمز في كثير من تعابيره؛ رغبة في تنويع أساليبه، والإفصاح عنها في قوالب جديدة تتواءم وحالته الشعورية المضطربة، فخرجتُ بنتائج عدة تكشف عن تغلغل القلق في بنية دواوينه.

الكلمات المفتاحية: ظاهرة القلق، الموضوعاتية، الموضوعات الفرعية، الدلالات.

Abstract

This research deals with the phenomenon of anxiety in Saleh Al-Sharnoubi's poetry, and treats it according to the thematic approach, which is concerned with tracking the main topic, monitoring its sub-themes, and explaining its various connotations and the extent of their harmony with its content. Al-Sharnoubi lived an anxious life, in which he suffered from alienation and isolation, and tasted the bitterness of feeling heartbreak and death. He suffered from the coldness of his family and friends, and the woman's repulsion and aversion to him, and he was consumed by the fire of poverty and hunger. This was reflected in his psyche, so he entered into a conflict with himself, tried to cling to his varying spiritual nature, discussed the issues of his society, and depicted their terrifying repercussions on his reality. He also resorted to symbolism in many of his expressions. Desiring to diversify his methods and express them in new forms that fit his turbulent emotional state, I came up with several results that reveal the penetration of anxiety into the structure of his collections.

Keywords: anxiety phenomenon, thematics, subtopics, semantics.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد تسرّبت ظاهرة القلق في نتاج الشعراء في العصر الحديث، وارتبطت بالأحداث المختلفة التي شهدها هذا العصر، وبمعاناة الشعراء الوجدانية، وتأثرهم بالنماذج والمدارس الغربية في التأليف والإبداع، وكانت استجابة لحالاتهم النفسية المتنازعة، كما استطاعت هذه الظاهرة فرض معالمها على مجموعة منهم، وأثرّت بصور متفاوتة على ألفاظهم وأساليبهم وصورهم، كما تنوعت موضوعاتها ودلالاتها.

وصالح الشرنوبي واحد من هؤلاء الشعراء الذين ذاقوا ويلات القلق بمختلف صوره، وانعكس تأثيره على معالم حياته، فعاش في ضبابية مفرطة وسواد حالك، وقد أفصح عن تلك المعاناة في بنية أشعاره، وبيّن آثارها النفسية، وأنماطها المتعددة، وطفق يصارعها بما يملك من أدوات، ومن هذا المنطلق اتجه هذا البحث لاستقصاء ظاهرة القلق في شعره.

ويطرح البحث تساؤلات عدة ؛ منها:

- لماذا تعمّقت ظاهرة القلق في بنية أشعار الشرنوبي؟
- لماذا تعددت موضوعات القلق وتفرّعت في شعر الشرنوبي ؟
- ما الدلالات البارزة لظاهرة القلق في شعر الشرنوبي؟

ويتوخى هذا البحث تحقيق جملة من الأهداف، من أبرزها:

- التماس التفسير المقبول لظاهرة القلق عند الشرنوبي.
- الكشف عن موضوعات القلق المختلفة في شعر الشرنوبي، ومظاهر تفرّعها، وبيان أثرها في الموضوع الرئيس" **القلق**".
- الإفصاح عن دلالات القلق في شعر الشرنوبي، وطرائق توظيفها.

أما الدراسات السابقة، فبعد البحث والتحرّي تبيّن- في حدود علمي- أن ظاهرة القلق في شعر الشرنوبي- دراسة موضوعاتية، لم تحظ بدراسة مستقلة، وأن الدراسات المختلفة التي دارت حول شعره أغفلت هذا الجانب، فتناولت إمّا أدبه عامة، أو بعضًا منه.

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج الموضوعاتي الذي يرصد الموضوع المهيمن والشائع في نتاج الشاعر، وتحديد تفريعاته المتصلة به، والكشف عن الأفكار والعلاقات التي تغذي بناءه، وتحديد الألفاظ والدلالات البارزة في نسيجه، وطرائق تواترها؛ حتى شكّل مركزًا جوهريًا في دواوينه.

وقد التزمت في هذا البحث بكتابة الأبيات على صورتها التي ظهرت في دواوين الشرنوبي، علمًا بأني إذا قلت " الديوان" فالمقصود به ديوان صالح الشرنوبي، كما لم أقم بترجمة أحد في هذا البحث سوى صالح الشرنوبي .

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يقوم على: مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وثبت المصادر والمراجع.

وتتضمن المقدمة الإشارة إلى أهمية الموضوع، وأسئلة البحث، والأهداف المتوخاة، والمنهج المتبع فيه، وخطة البحث.

ويعرض التمهيد:

- **أولًا: التعريف بالشاعر.**
- **ثانيًا: أسباب القلق في شعر صالح الشرنوبي.**

ويتناول المبحث الأول موضوعات القلق في شعر صالح الشرنوبي، وهي:

- **أولًا: الاغتراب.**
- **ثانيًا: الموت.**
- **ثالثًا: المرأة.**
- **رابعًا: الأسرة والأصدقاء.**
- **خامسًا: الفقر**

ويدرس المبحث الثاني دلالات القلق في شعر صالح الشرنوبي، وهي:

- **أولًا: الدلالة النفسية.**
- **ثانيًا: الدلالة الدينية.**
- **ثالثًا: الدلالة الاجتماعية.**
- **رابعًا: الدلالة الرمزية.**

وتشتمل الخاتمة على أبرز النتائج التي توصلت إليها، ويعقبها ثبت المصادر والمراجع.

وأخيرًا، أسأل الله التوفيق والسداد، والحمدلله رب العالمين.

التمهيد

- أولًا: التعريف بالشاعر:

صالح الشرنوبي (١٩٢٤-١٩٥١م)

هو صالح بن علي الشرنوبي، ولد في السادس والعشرين من شهر مايو سنة ١٩٢٤م في بلطيم، من أسرة محافظة، وكان والده يشتغل بالتجارة، وعرف عنه الشدة والصرامة، وكان يتمتع من بين إخوته بإعزاز والدته له، وخوفها من شروده في كثير من الأوقات(١)، وفي ضوء هذه البيئة نشأ شاعرنا.

تلقى الشرنوبي تعليمه الأولي في المعهد الديني في دسوق، ثم ارتحل إلى الدراسة في معهد القاهرة، كما درَس في المعهد الأحمدي بطنطا، ثم كلية دار العلوم(٢)، وعمل لاحقاً مدرّساً في مدرسة بنات بلطيم الابتدائية، ثم نزح إلى العمل في القاهرة التي لم يحالفه التوفيق فيها، ليعود مرة أخرى إلى العمل في بلطيم، كما اشتغل مصححاً في جريدة الأهرام المصرية(٣).

وقد اهتم الشرنوبي منذ نعومة أظفاره بالأدب والأدباء، وكان مولعًا بالاطلاع والقراءة، فعكف على قراءة الأدب العربي قديمًا وحديثًا، كما حاول معارضة النماذج الشعرية الرفيعة، واطلع على نتاج الأدباء الغربيين، وبخاصة الفلاسفة منهم، وارتبط بعلاقة وثيقة مع أدباء عصره، ونشر نتاجه الشعري في بعض الصحف والمجلات(٤)، ولعل في هذا الملمح من حياته ما يدلّ على شاعريته وفكره ونبوغه، وبذلك احتل الشرنوبي مكانة مرموقة بين شعراء عصره، إذ مزج في شعره بين أحاسيسه ومشاعره(٥)، فكان شعره مرآة صادقة لمعالم حياته الكئيبة التي ترددت بين القلق والاغتراب والشعور بالوحدة، والعزلة عن الناس والمجتمع.

وبعد حياة مضطربة عاشها الشرنوبي في القاهرة، قرر العودة إلى أسرته في بلطيم، والعيش في كنفهم مرة أخرى، وحين خرج يتأمل سحر الطبيعة الخضراء في قريته - كعادته- جلس على شريط قطار الدلتا، وتفاجأ بقدوم القطار مسرعاً نحوه ، فصدمه وطرحه بعيداً مضرّجًا في دمائه، فشيعته بلطيم في السابع عشر من سبتمبر سنة ١٩٥١م.(٦)

(١) ينظر: الشرنوبي، صالح، ديوان صالح الشرنوبي، تحقيق: عبدالحي دياب، مراجعة: أحمد كمال زكي، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٦م، ص: ١٩-٢٢.

(٢) ينظر: الزركلي، خير الدين الأعلام –قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢م، ج٣، ص: ١٩٣- ١٩٤.

(٣) ينظر: الديوان: ٢٩، ٣٣، ٤٤.

(٤) المصدر نفسه: ٢٤، ٢٨، ٤٨، ٤٩.

(٥) ينظر: آل جندي، أدهم، أعلام الأدب والفن، مطبعة مجلة الاتحاد، دمشق، ١٩٥٨م، ج٢، ص: ٤٨٧.

(٦) ينظر: الديوان: ٤٧.

وقد خلّف الشرنوبي إرثًا أدبيًا ضخمًا، إذ بلغ نتاجه الشعري أحد عشر ديوانًا، إضافة إلى بعض الخواطر النثرية[١]، التي عالج فيها مختلف الأغراض والموضوعات، كما أفصح في بنائها عن أحاسيسه وعواطفه المتنوعة.

-ثانيًا: أسباب القلق في شعر صالح الشرنوبي

عاش الشرنوبي حياة مضطربة، عانى فيها من القلق بمختلف صوره، ودخل في صراع مع العزلة والوهم، فطفق يصدح بآلامه وأوجاعه، ويفصح عن مكنونات أوهامه في تضاعيف أبياته، وبدت الصورة السوداوية تطغى على ألفاظه ومعانيه وصوره ومنتهى تأملاته، فالقلق ظاهرة نفسية لها ارتباط وثيق بصاحبها، ولها مظاهرها الفسيولوجية.[٢]

فالشرنوبي ولد في منطقة ريفية، تكسو الخضرة معالمها، وتحيط بها بحيرة " البرلس" وبحيرة" تيرة"، فتعلق بالطبيعة، وانصهر في معالمها، وتعمّق في أسرارها، فكان حريصًا في بعض منعطفات حياته إلى الهروب من عالمه المتقلّب واللجوء إلى فضاء الطبيعة، يحاورها ويناجيها، ثم كان لانتقاله إلى القاهرة الأثر الأبرز في معاناته، فكان دائم الشوق والحنين إلى أهله والريف ومعالمه، إضافة إلى معاناته من الوساوس، وسوء المنقلب في بعض محطات حياته[٣].

والمتأمل لحياة الشرنوبي يلحظ خلوها من الراحة والطمأنينة، فقد عصفت به الأحداث المتتابعة ، وكبّلت أحلامه وتطلعاته، ودفعته إلى العيش في كهوف اليأس والعزلة.

وقد أدت الفجوة الكبيرة بينه وبين أسرته إلى تراكم قلاقله، فهو يعاني منذ صغره من جفوة أبيه وقسوته، وتفضيل إخوته عليه، ومن خوف والدته السلبي، حيث كانت تظن شروده علامة من علامات الحسد، فبدّلت اسمه إلى " يونس"، حتى تصرف الأنظار عنه، فزاد ذلك من قلقه وحيرته، وشكّلت معاناته من إخوته الجانب المظلم من حياته، فقد كان أخوه " شرنوبي" يضربه ويقسو عليه، ولا يقف بجانبه في محنته وبؤسه، إضافة إلى ابتعاد أصدقائه عنه في وقت الشدائد، ونفورهم منه، وخروجهم من عالمه، فقضى شطرًا من حياته في مغارة في الجبل، لا يجد فيها ما يسد رمق جوعه، أو ما يحفظ عليه بدنه أو مكانته، فأضحى مشرداً بعد أن ابتلعته المدنية، وفُصل من عمله، ودخل مستشفى الأمراض العقلية، وتخلى عنه الأهل والأصدقاء. [٤]

(١) المصدر نفسه: ٧.
(٢) ينظر: الحنفي، عبد المنعم، المعجم الموسوعي للتحليل النفسي، دار نوبليس، بيروت، لبنان ، ط١، ٢٠٠٥م، مج٢ ، ص: ٢١٧.
(٣) ينظر: الديوان ٢١- ٢٤.
(٤) المصدر نفسه: ٢٢- ٣٥.

وكان نتاج الشرنوبي الشعري مواكبًا لأحواله المضطربة بدءًا من عتبات دواوينه التي حملت عناوينها – في معظمها– قلاقله، وأوحت بتراكم الأشجان في حياته، وجاءت عناوينها على النحو الآتي: " **أصداف الشاطئ عبرات. سبحات. بسمات**" و" **الأمواج**" و" **نسمات وأعاصير**" و" **في موكب الحرمان**"، و" **أقاصيص**" و" **أشعار ورسوم**" و" **ظلال وألوان**" و" **مع الريح**"، وهذا البناء الخارجي انعكس على بناء عناوينه الداخلية فحملت في مجملها هواجسه – كما سيظهر ذلك في هذا البحث–، فالشاعر الوجداني المعاصر يلجأ في عناوينه إلى الإفصاح عن أحاسيسه العاطفية، وآرائه الفكرية في عتبات نتاجه(١)، كما تمكن الشرنوبي من تصوير حياته تصويرًا دقيقًا في بنية أشعاره، فلم يترك موقفاً سلبيًا تعرض له في حياته إلا رصده ، ووقف عند تفاصيله، وبيّن ارتداداته المؤلمة على نفسيته وعواطفه، وذلك ديدن الشاعر المعاصر الذي من قيثارة الحزن محورًا ثابتًا في تعابيره(٢)، فهو ينفث في بنية أشعاره بما يوحي بمشاعره وأفكاره وأحاسيسه.(٣)

(١) ينظر: العجلان، سامي بن عبدالعزيز ، إغواء العتبة عنوان القصيدة وأسئلة النقد، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت–لبنان، ط١، ٢٠١٥م، ص: ٣٧٤.

(٢) ينظر: إسماعيل، عز الدين، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، ط٣، ١٩٨١م، ص: ٣٥٢.

(٣) ينظر: زايد، علي عشري، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ط ٤، ١٤٢٣هـ /٢٠٠٢م، ص: ٣٥.

المبحث الأول: موضوعات القلق في شعر صالح الشرنوبي

تعددت موضوعات القلق في شعر صالح الشرنوبي، وجاءت مواكبة لحالته النفسية المنكسرة، وما عاصره من أحداث كئيبة متنوعة في عصره، وظلت هذه الموضوعات باعثة للألم والقهر، ونافذة لطرح مخاوفه، فالموضوعاتية منهج يعمد إلى تفكيك النص إلى موضوعات تغذي الموضوع الرئيس؛ وصولًا إلى الرؤية الكلية لهذه الظاهرة(١)، وتحليل المفردات المكوّنة له، والخروج بدلالاتها ووظائفها(٢)، وبذلك يتمكن الدارس من تشجير الموضوعات الفرعية وربطها بالفكرة المحورية في صورة شبكة العلاقات الموضوعاتية(٣)، والتشجير الآتي يوضح موضوعات هذه التيمة وتفريعاتها:

(١) ينظر:حسن، عبدالكريم، المنهج الموضوعي نظرية وتطبيق، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٤١١م/١٩٩٠م، ص: ٨٦.

(٢) ينظر:علوش، سعيد، النقد الموضوعاتي، شركة بابل للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، ١٩٨٩م، ص: ٤٧.

(٣) ينظر:وغليسي، يوسف، التحليل الموضوعاتي للخطاب الشعري– بحث في ثوابت المنهج، وتحولاته العربية، ومحاولات لتطبيقه، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط١، ١٤٣٨م/ ٢٠١٧م، ص: ١١٦.

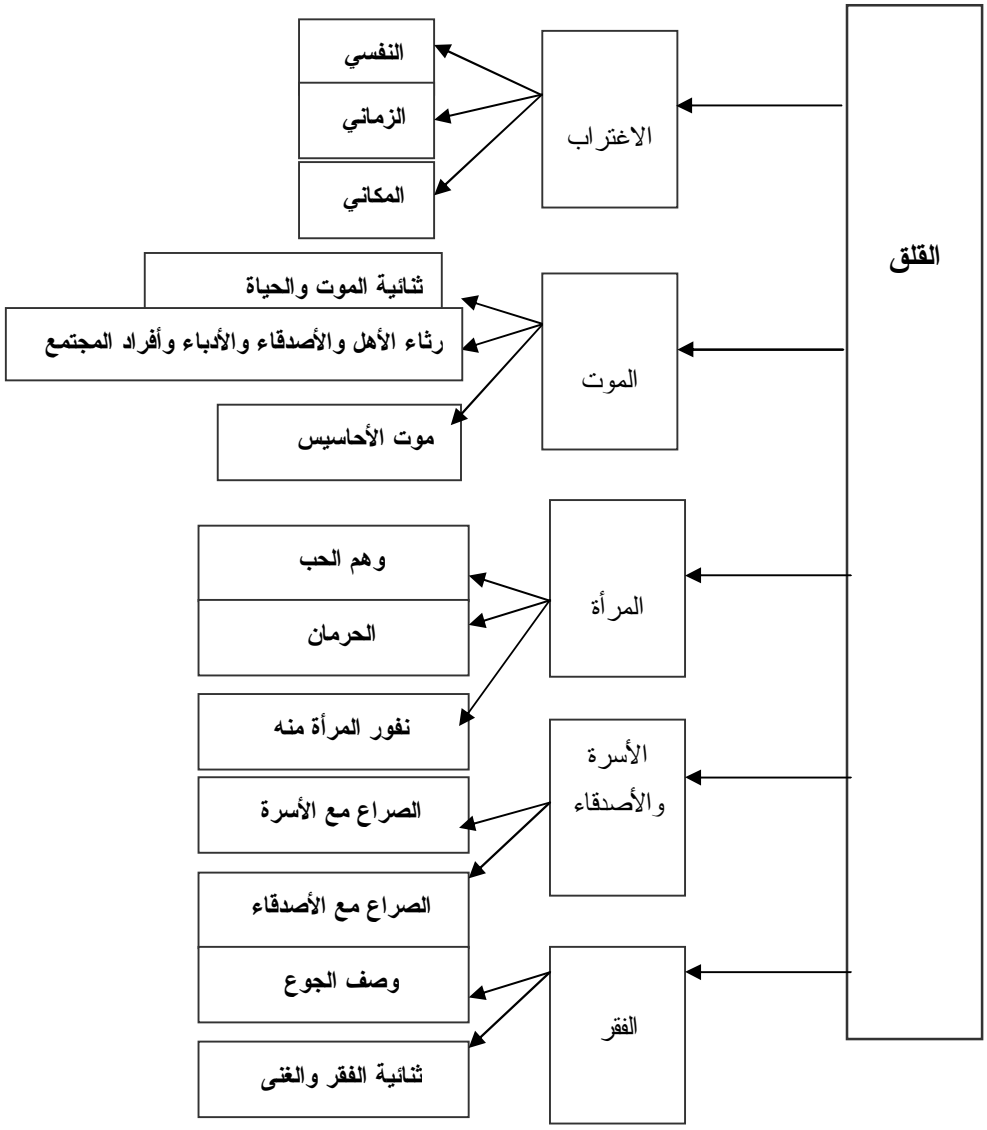
القلق
الاغتراب
النفسي
الزماني
المكاني
الموت
ثنائية الموت والحياة
رثاء الأهل والأصدقاء والأدباء وأفراد المجتمع
موت الأحاسيس
المرأة
وهم الحب
الحرمان
نفور المرأة منه
الأسرة والأصدقاء
الصراع مع الأسرة
الصراع مع الأصدقاء
الفقر
وصف الجوع
ثنائية الفقر والغنى

أولًا: الاغتراب

يعيش الشرنوبي حياة غير مستقرة، يعاني فيها من القلق والحيرة والشرود، وتكالب الأوهام، وتذبذب التفكير، وتغطي عالمه سحابات من الآلام والهموم والأعاصير، ألقت بظلالها على حالته النفسية، فبات أسير شكوكه وأوجاعه، فنتج عن هذا شعوره بالاغتراب بمختلف صوره في عالمه، وقد تناول هذه الحالة الضبابية في بنية أشعاره، وعزف بأوتارها الحزينة في معظم موضوعاته، فالموضوعاتية تسعى إلى خلق شبكة من الترابطات المتواترة التي تنسجم مع الموضوع الرئيس،(١)كقوله في قصيدة " **من للغريب**":

من للغريب إذا شكا والليل يشجيهِ النّداءْ

ودموعه تجري على خدّيه وهي لهُ عزاءْ

نجواه وحي غرامهِ وحنينهُ وحي السماءْ

وضلوعه مجْرى الأنين وخدّه مجرى الدّماءْ

والبدر لا يدري أساه وليس للنّجم اهتداءْ(٢)

يلحظ من عنوان القصيدة " من للغريب" تغلغل الاغتراب النفسي في شرايين الشرنوبي، وسيطرته عليه، فاستخدام أداة الاستفهام " من "، وإسنادها إلى لفظة "الغريب"، إضافة إلى مجيئها في مطلع البيت الأول، يدل دلالة واضحة على معالم قصيدته المبهمة، التي اختار البحر الكامل المجزوء وزنا لها، مع دخول الخبن كثيرًا في تفعيلاته، والاتكاء على القافية المقيدة، واستعمال حرف العطف الواو ليربط بها بين أبياته، في إشارة إلى تلاحق أنفاسه المتحطمة، كما نثر ألفاظ الاغتراب في بنيتها:" الغريب، شكا، الليل، يشجيه، النداء، دموعه، عزاء، نجواه، غرامه، حنينه، ضلوعه، مجرى، الأنين، الدماء، البدر، أساه، النجم"، كل هذا مدعاة إلى تسرب القلق في محيطه.

وترتفع وتيرة القلق عند الشرنوبي، فيمضي ساردًا سيرته في هذه الحياة، واصفًا نفسه كما يراها، وفي هذا يقول :

هو نايٌ حُرِمَ الشدوَ فماتتْ أغنياتُهْ

(١) ينظر: بارجاس، دانيال، وآخرون، مدخل إلى المناهج النقدية في التحليل الأدبي، ترجمة: الصادق قسومة، مطبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص: ٢٥٢.
(٢) الديوان: ١٢٣.

هــو قلــبٌ مُنِــعَ الحــبَّ فجُنّــتْ خفــقاتُــــهْ

هــو كــأسٌ عافــهُ الــشّربُ فجفّــتْ قطراتُــهْ

هو جفــنٌ شــاقهُ النّــومُ فــــطالت رعــشاتُهْ (١)

يصوّر الشرنوبي في هذه القصيدة وحدته، وشعوره باليأس والإحباط في حياته، واعتماده على الضمير في مطلع الأبيات، وتكراره بشكل رأسي، يوحي بمعاناته وهمومه، وبلوغه مرحلة متقدمة من الانكسار، واستحضار صورة الناي الصامت، والقلب المضطرب، والكأس المنبوذ، والجفن المؤرق، من علامات القلق والخوف والشعور بالخذلان.

وفي بنية قصيدته " **خريف**" يلحظ تعمق الاغتراب النفسي والزماني في بنيتها، إذ يقول:

قــالو الربيــع! فقــلتُ لا ... أدريــهِ مــن عــمر الزمــانْ

أنــا مــا عرفــتُ ســوى الخريــ ــف.. أعــيش فيــه بــلا أمــانْ

شَــربتْهُ أيّامــي الحــزيــ ــنة مــلء أكــواب الهــوانْ

ورأتــهُ روحــيَ عــالمــاً مــا فيــهِ للــسلوى مــكانْ(٢)

إنّ انصهار الشرنوبي في معالم الطبيعة، وذوبانه في عناصرها، وتعلقه بتفاصيلها الدقيقة، أدّى إلى قدرته على توظيف جزئياتها في بنية قصيدته، فالشاعر الوجداني يلجأ إلى الطبيعة ويشكلها وفق تجاربه الذاتية فيؤدي ذلك إلى تراكم الانفعالات والصور المحملة بالدلالات الشعورية.(٣)

فالشرنوبي يصور الصراع الأزلي بين عنصري الطبيعة والزمان : الربيع والخريف، وتفاوت الصراع بينهما، أمّا رؤيته لهما فقد بدت معالمها الموحية ظاهرة للمتلقي من عنوان القصيدة" خريف" الذي يوحي باغترابه، ثم إقراره في أبيات هذه القصيدة على سيطرة الخريف على تفاصيل حياته، فقد أشار في مطلع القصيدة – القائم على الحوار– إلى نفي الربيع من قاموس عمره، وانطلق في بقية الأبيات يصف ذلك الخريف المرعب، فهو لا يعرف في حياته سوى ذلك الخريف الموحي بالسواد

(١) المصدر نفسه: ٢٣٦.

(٢) المصدر نفسه: ١٦٥.

(٣) ينظر: القط، عبد القادر، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٨م، ص:٣٥٠.

والوحشة، فانعكس ذلك على بنية قصيدته، كما اتكأ على تقنية الصمت في مطلع أبياتـه؛ ليلتقط أنفاسه، ويسرد بقية أحزانه.

ويبدع الشرنوبي في تصوير غربته حين يحاور قلمه، ومضى يـشكو إليـه جـور الزمان وقسوته، كقوله:

أصـامتٌ أنتَ أم نشـوان يـا قلـمي؟ أم أخرستك الليـالي الـسافحات دمـي؟

أمْ غيض نبع الأماني الحور فانطمـستْ؟ آيـات نـورك في داجٍ من الظلـمِ؟

أمْ ودّع الخـافق المسـكين صـبوتهُ؟ فنـام عن دهـره.. والدهـر لم ينمِ؟

أمّ أنّ عهدي بـأحلام الـشباب مـضى؟ وكنـتَ ترجـو شبـابي دائـم

أفديك ما دار في وهمـي ولا خـلدي؟ أنّي سـأُلقيـكَ بين اليـأسِ والنـدمِ؟

أشكو إليك فتـصغي لـي ..وتكتـب مـا أمـلي عليـك أمـيناً غـير متّهـمِ

فما سئـمتَ وقـد شـاركتني مِحَـني ولا برمْـتَ وقـد قـاسمتـني ألمي (١)

هذا الحوار الغامض بين الشرنوبي وقلمه زاد من رقعة قلاقله وهواجسه وتساؤلاته، فقد جمعتهما صحبة قديمة جديدة، وتحمّلا سويًا حوادث الدنيا وفواجعها، فاستهل قصيدته بالاستفهام، متسائلًا عن سبب سكوته، وتبدأ الشكوك تتوغل من ناحيته، فهل صمت القلـم سببه الخوف والقلق؟ أم هو نتاج النشوة والفرح؟ ولعل استفهامات الشرنوبي الموغلة في الحرمان تكشف عن معاناة قلمه– والتي هي في الحقيقة صورة لغربته– الذي يئن مـن الليالي الدامية، ومن غيض نبع الأحلام والأماني، ومـن تقلّـب الـدهر وأيامـه، ومـن صراعاته مع اليأس والندم، ثم يقر بعد ذلك بمشاركة قلمه له في تفاصيل حياتـه القلقـة، ومع ذلك لم يشعر بالسأم، ولم يتركه وحيدًا في محنته القاسية.

وحين بلغ الشرنوبي الخامسة والعشرين من عمره نثر مكنونات أوجاعه فـي هـذه القصيدة، فقال:

خمـسٌ وعـشرون عـامـا مـرّت سـحاباً جهامـا

فـما زرعـنَ صـفـاء ولا حـصدنَ سـلاما

ومـا زرعـنَ سـوى الـيأْ سِ ناضـراً بـسّامـا

(١) الديوان: ٤٤٧– ٤٤٩.

ولا حـــــصدنَ ســـــوى العمْـــــــ ـــــــرِ أنجمـــــاً تتـــــرامى

خمـــــسٌ وعـــشرون عـــامـــا ذابـــــتْ جـــــوىً وســـــقاما

تهـــــوي عـــــلى أمّ رأســـــي حجـــــــارةً ورجـــــــاما

سئـــمـــــــتُ ذاتـــــي وظـــــلّي وصـــــبوتي.. والغـــــراما (١)

إنّ المتأمل لهذه القصيدة يتعجب من إيغالها في الاغتراب، فالشرنوبي لا يزال في فتوة شبابه، ومع ذلك يسرد لنا تفاصيل حياته – وكأنه عمّر طويلًا –، ويتحدث عن معاناته من تقلبات الزمان، وشدة فتكه، فلم يجد فيه الراحة والسلام والأمان ، وإنّما خضع لسيطرة اليأس، وسوداوية الواقع، فتكسرت مجاديفه، وما بلغ شاطئ السعادة والفرح، ولعل تكرار حرف النفي في هذه الأبيات أربع مرات في الصدر والعجز يوضح حالة العجز التي وصل إليها.

ويمضي الشرنوبي في وصف حياته البائسة التي عاشها في القاهرة بعيداً عن بيئته الريفية، فالطبيعة – غالبًا– تدفع الشاعر الوجداني إلى استجلاء بصره في الأفق البعيد والصدح بآهاته، أما المدينة فهي عبارة عن طلاسم وحواجز تحجب النظر، وتفرض عليه طوقًا نفسيًا يحول بينه وبين البوح بآلامه(٢)، وفي هذا يقول في قصيدته " **على ضفاف الجحيم**":

أقـرأ فـي ظلامـــها مـصـيري وأعـــرف الغايـــة مـــن مـــسـيري

بعـد احتـراق الأمـلِ الأخـــيرِ وفرقـــة الـــصّاحـــب والعـــشيرِ

هـذا أنـا فـي العـــالمِ الكـــبيرِ فـــوق ربـــا المقـــطّم المهـــجورِ

متخـذاً مـــن أرضـــه ســـريري مـــن الحـصى والطّـين والـصـخورِ (٣)

إنّ عنوان القصيدة " على ضفاف الجحيم" يوحي باغتراب الشرنوبي ومأساته، فإضافة النكرة " ضفاف" إلى المعرفة "الجحيم "خلق فضاءات واسعة من الضبابية والآلام، وقد تسربت هذه الرؤية المتحطمة إلى أركان أبياته، فأحدثت دويّاً مجلجلًا وافق حالته الانهزامية المنكسرة، التي استسلمت لضفائر العتمة والألم والاحتراق.

(١) المصدر نفسه: ٤٦١– ٤٦٣.

(٢) ينظر: إسماعيل، عز الدين، التفسير النفسي للأدب، مكتبة غريب، القاهرة، ط٤، ١٩٨٤م، ص:٩٣.

(٣) الديوان: ٤٩٨.

ثانيًا: الموت

أسهمت تيمة القلق التي تحكّمت في عواطف الشرنوبي في انتشار أيقونة الموت في بنية أشعاره، وأصبحت مدار أفكاره ورؤاه، وأخذت تتنامى وتتزايد نتيجة تطور حالته القلقة المضطربة، فمحور البحث يتجه إلى تحديد نقطة الارتكاز حول الموضوع الرئيس، ومدى ترابطها مع تيماتها الفرعية(١).

ويلحظ المتأمل لدواوين الشرنوبي انتشار مفردة الموت في ألفاظه وتراكيبه وصوره، وأصبح التفكير بحتمية الموت ظاهرًا في تعابيره، وبعثت هذه الرؤية السوداوية الكبت والمأساة في بنية قصائده، فالشرنوبي في نتاجه الشعري يتعرّض لثنائية الموت والحياة، ويقدّم فلسفته الخاصة نحوها، ويتعمّد الهروب من عالمه وواقعه الحزين؛ ليعلن بكل جلاء استسلامه لقلاقله التي وأدت أحلامه وحياته.

وعاش الشرنوبي حياة قلقة منذ ولادته حتى وفاته، وكانت رائحة الموت منتشرة في بيئته ورؤيته، وقد أفصح عنها في مختلف موضوعاته، كالصراع الدائر بين الحياة والموت، أو في رثاء الأقارب والشعراء وضحايا الأمراض والحوادث المختلفة، أو حين قام بوصف موت أحاسيسه الوجدانية.

وحين يتسرب القلق في وجدان الشرنوبي تتكسر مجاديفه، وتطغى على أفكاره حتمية الفناء، ويقع ضحية للصراع الدائر بين الحياة الموت، كقوله:

بعد حينٍ ستواريني كما وارت سواي الحفراتُ

بعد حينٍ تحرم الدنيا أناشيدي وتفنى الأغنياتُ

بعد حينٍ لست أدري أقريبٌ أم بعيدُ

تنتهي أحلام دنياي ويبكيني الوجودُ

وتغشّي سحب الموت سمائي بعد حين (٢)

فالشرنوبي في هذه الأبيات يقدم فلسفته في هذا الوجود، ويؤمن بمصيره المنتظر، فهو لا محالة ميت، وستحرم الدنيا من أناشيده وأغنياته، وتتغشى عالمه سحائب الموت المرعبة التي يجهل وقتها وأوانها، هذا الشعور المضطرب دفعه إلى تكرار جملة" بعد

(١) ينظر: مجموعة من الكتاب، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ترجمة: رضوان ظاظا، مراجعة : المنصف الشنوفي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، رقم (٢٢١)، ١٩٩٧م، ص: ١١٢.

(٢) الديوان:٢٤٦ .

حين" ثلاث مرات بشكل رأسي، ومرة واحدة بشكل أفقي، وتوزعها بين بداية المقطوعة ونهايتها يحمل في طياته دلالات الإحباط والحسرة.

وتتصهر ذات الشرنوبي القلقلة الباعثة إلى الموت في قالب رثاء الأهل والأدباء وضحايا المرض والحوادث المتفرقة، فيصبح رثاؤهم في الحقيقة رثاء لذاته البائسة، كقوله في رثاء ابن عمه:

ابن عمي مات... فامضوا بي إلى قبر ابن عمي

ودعوا همّي فقد ودّعتُ منذ اليوم همّي

غير ما جدّ من الموت الذي آذن قومي

فرماهمْ ورماني.. ومضى .. ما شاء يرمي(١)

نظم الشرنوبي هذه القصيدة على مجزوء الرمل، مع تنوع القافية، وقسمها إلى أربع عشرة مقطوعة، كل واحدة منها تتضمن تناهيده ودموعه على فراق ابن عمه، وعلى أوضاعه المتدهورة، وشعوره بقرب أجله، وأسهم مطلع القصيدة " ابن عمي مات..."، في خلق فضاءات من الدلالات المبعثرة، ما بين رثاء ابن عمه، والإفصاح عن قلاقله، فانعكست هذه الرؤية على بنية أبياته، فوقعُ هذا الخبر المؤلم قد أنساه كل هم ووجع؛ لأنه في الحقيقة – كما بين ذلك في نهاية المقطوعة– قد أصابه الموت الذي أصاب أهله، وإن كان على قيد الحياة، وفي هذا دلالة على موت أحاسيسه وآماله.

ويلجأ الشرنوبي حين يعتريه القلق والتشاؤم إلى رثاء الشعراء، واستحضار مواقفهم ومجالات إبداعهم، والأثر الذي تركوه بعد رحيلهم، فهم – في نظره– أقرب الناس إلى فكره ورؤيته، فمشربهم واحد، وإن اختلفت الأفكار والمبادئ، وهذا الرثاء على الحقيقة هو رثاء لنفسه وأحواله، كقوله في رثاء الشاعر الرومانتيكي علي محمود طه:

لا أنا خالدٌ ولا أمنياتي ... فوداعاً مسارح الذكرياتِ

أقفرتْ واحتي وصوّح كرْمي ... وطغتْ علّتي .. ومات أُساتي

ودنا الشاطئ البعيد.. فرفقاً ... بسفيني يا آخر العاصفاتِ

هوّني ما استطعت من ثورة البحـ ... ـرِ .. وردّي أمواجه العاوياتِ

(١) المصدر نفسه: ٤٤٣.

وارحمي.. إن تـك العواصـف تـدري رحمـة .. وحـدتي مـع الحـادثاتِ
ذهـب العمـر.. وانطـوتْ صـفحات ويـح لـي مـن سـطورها الكابـياتِ
فارتقبـني يا لـيل بعـد قـليلٍ عنـد تلـك المقـابر الثـاوياتِ
وسَـلِ الأرض هـل خلـتْ لحـظات مـن بكـاء النُّعـاةِ والنَّادبـاتِ؟
وسـلِ الليل والنهـار.. ومـا بيْـ ـنَ الثّرى والسـماء مـن كائـناتِ
قل لها مات شـاعر الحـبّ والمجْـ ـدِ فكم قد أرقـتِ مـن عـبراتِ[1]

يلحظ في هذه الأبيات سيطرة تيمة القلق على بُناها، فالمقـام مقـام رثـاء، ولكـن الشرنوبي يرثي نفسه وحاله في مطلع هذه القصيدة، فالكون في نظره قد اتشح بالـسواد، والبحر قد تعالت أمواجه، وارتفع هديره، والعمر قد طوى صفحاته، وآذن بنهاية حياتـه، وبعد هذا النشيج الآسر يدلف إلى رثاء الشاعر ويمزجه بآهاته وعبراته.

وحين انتشر مرض الملاريا في الصعيد، وقف الشرنوبي باكيًا وساردًا تفاصيل هذا الوباء، وما خلّفه من موتى وأرامل وأيتام وأحزان، وفي هذا يقول:

لهـف نفـسي والمنـايا تلتظـي مـا لجمْـراتِ المـنايا مـن خـمودِ
صـهرتها وهـي كالغـيم نـدًى! فـي لظـى الحـسرة أبنـاء الـصعيدِ
دهـم المـوت علـيهم دورهـمْ وأراهـم بطـش جبّـار عـنيدِ
شـرَع المِنجْـل فـي راحـاتهِ وانبـرى يعـصف بالنَّبـتِ الحـصيدِ
كـم فتـاةٍ هـدهدتْ آمالهـا وفتـى عـاش علـى حـلمٍ سعـيدِ
وعـروسٍ كُفّنـتْ فـي ثـوبها! وعـريسٍ أدرجـوهُ فـي البـرودِ
نـصب المـوت لهـم أشـراكهُ ودهـاهم مـن قـريبٍ أو بعيـدِ
لـم يفـرّق بـين شيـخ هـرم ورضـيع فـي حِمـى المهـدِ وليـدِ
فهـمُ بـين مـريض جـائع يطلـب المـوت.. وعريـان شـريدِ[2]

(١)المصدر نفسه: ٤٧٩ –٤٨٠.
(٢) الديوان:١٢٤ .

يسرد الشرنوبي في هذه الأبيات مأساة الصعيد من هذا الوباء، حيث تسلل في كل بيت، وألحق بأهله الموت والمرض والجوع والخوف، فاختلطت مشاعره المتوترة مع تلك الصرخات المدوية الحزينة من أفراد ذلك المجتمع، وبدأ في رسم خيوط ذلك الموت المرعب، وكيف داهمهم في غفلة، وقد أشرع منجل الفتك، وبدأ في حصاد تلك الأرواح، ولم يرأف بشيخ كبير وطفل رضيع، ولا فتاة مسكينة وفتى حالم، ولم يرحم البائس المريض، ولا الجائع الشريد، وحوّل أفراحهم إلى مآتم، ونصب أشراكه في كل شبر من أراضيهم، إن هذه الصورة الحركية المفزعة لهذا الحدث ما كانت لتصبح بهذه الصورة القاتمة السوداء لولا تسربها في روح الشرنوبي، وامتزاجها مع مخاوفه من الموت.

وتظهر علامات القلق في بنية أشعار الشرنوبي حين يشعر بموت أحاسيسه تجاه محبوبته، كقوله:

سأبكيك قصة حبٍّ شهيد قضى وهو في مهده الزاهرِ

وأمضي إلى حيث يمضي الزمان إلى مرفأ الأبدِ الزَّاخرِ

إلى فجوة في رحاب الفناءِ نزيلاً على الأوّلِ الآخرِ[1]

ثالثًا: المرأة

عاش الشرنوبي حياة قلقة، تعددت مشاربها ومظانها، وعصفت بأحاسيسه وترانيمه، وقضت على ما تبقى من حبه وأغنياته، فلا تكاد تخلو دواوينه من وصف معاناته من المرأة وصدّها وهجرها ونفورها منه، مما أثر في بنية أشعاره، وبث فيها هذه الروح المتشائمة تجاهها، وتمكن الدراسة الموضوعاتية الدارس من استجلاء التغييرات التي تطرأ على التيمة المتكررة في النص الشعري، وربطها بالتيمات الصغرى.[2]

والمتتبع لدواوين الشرنوبي يجد تضادًا في رؤيته إلى المرأة، فحينما يكون راضيًا عنها، تطغى على بنية أشعاره ملامح اللهفة والأنس والوله، وعندما يغضب منها – وهو الغالب – تتمزق أحاسيسه، ويحصر نفسه في دوامة الشك والبين، ويصبح أسير السهد والضنى.

ويتلذذ الشرنوبي في وصف الجحيم الذي خلّفته المرأة في حياته، فهو يبكي بحرقة ابتعادها وصدودها، ويطلب في حالات كثيرة منها استعادة الذكرى والأيام الجميلة، كما

(١) المصدر نفسه: ٣٩٠.

(٢) ينظر: راستيي، فرانسوا، فنون النص وعلومه، ترجمة: إدريس الخطاب، دار توبقال للنشر، الدرا البيضاء، ط١، ٢٠١٠م، ص: ٢٣٦.

يلجأ إلى خلق عالم وهمي يتخيل وجود المحبوبة، ونشوب الصراع الغرامي بينهما الذي ينتهي بانتصارها، وشعوره بالخيبة، والانكفاء على نفسه.

ويلحظ مما سبق أن ظاهرة القلق حين تشرّبت روح الشرنوبي اتجهت مباشرة إلى خلق فجوة بينه وبين العشق، وجعلته يعيش في دوامة من الوهم والحقيقة، واستطاعت أن تعزله عمّن يحب، فانطلق شاديًا ببؤسه وانفطار قلبه، فالشعر على الحقيقة يخاطب الأحاسيس ويثيرها ويحرك تفاصيلها بما يتوافق مع مراد الشاعر.(١)

إنّ مناحي القلق في حياة الشرنوبي جعلته يصنع عالماً افتراضيًا من العشق، يسرد فيه أحداثًا درامية خيالية، يروي فيها معاناته من الهوى والوجد، كقوله:

وضحكنا ... واحتسى الكون رحيقًا عبقريّا

ورأتني شاعر النَّظرة فارتاحت إليّا

ومشينا فانتشى الرمل.. ويمّمنا النَّديّا

ثم قالت دَنَتِ الفرقة والليل سجا

وغدًا نروي من القلبين شوقًا لاعجا

ونغنّي الموج لحنينا.. فيرغى هائجا

إيه يا فاتنة الشطِّ أألقاكِ غدًا؟

أم يصير الوعد جمرًا بعد أن كان ندى؟

آه ما أقساك إن ضيَّعتِ أحلامي سُدى ؟

أنت دنياي التي أنشدها في خلواتي

أنت حلمٌ سابحٌ في مائج من صبواتي

أنت كأس الوحي في حانة أيام حياتي

فاقبليني عابدًا ... أفْنَ هوًى في صلواتي(٢)

صاغ الشرنوبي هذه الأحداث من وحي أوهامه، واتكأ فيها على الحوار الذي يفصح عن معاناته، فالمشهد الدرامي في هذه القصيدة ينطوي عن أزمة ومكابدة، واعتمد فيه

(١) ينظر: مندور، محمد، الأدب وفنونه، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط٥/ ٢٠٠٦م، ص: ٣٦.
(٢) الديوان : ١٢٨-١٢٩.

على نظام إيقاعي متنوع، تتداخل فيه الأصوات، وتتنوع فيه الأحداث، التي توافق تصدعاته وانكساراته، وأسهم في بث الحيوية في بنيتها، وانعكست قلاقله على بنية مشاهده، فتارة يسرد مشهدًا مفعمًا بالسرور والبهجة مع محبوبته، وتارة يرسم مشهدًا آخر يستعرض فيه معاناته من الفرقة والبعد، ويقرّ في المشهد الأخير– في نهاية القصيدة– بأن هذا العالم من الحب الذي اصطنعه في أحلامه ينشده دائمًا في خلواته، فلذلك كرر الضمير المنفصل رأسيًا ثلاث مرات؛ أملاً في تحويل هذه الدراما إلى واقع.

وفي قصيدة "**لهفة**" صورة من صراع الشرنوبي الأزلي مع الحب، كقوله:

يا من يُعذّبني بفرْطِ دلاله هوّن عليكْ

وارحمْ أسى الباكي على آماله صرْعى لديكْ

قلبي وحال البائسين كحاله يهفو إليكْ

مضتِ السنون وما انتشى بوصاله إلا لديكْ

ولسوف يلقى الموت من إذلاله وتعيش ويكْ

يا من يعذّبني بفرْطِ دلاله لهفي عليكْ[1]

إن استهلال الشرنوبي قصيدته بالنداء " يا من"؛ واستخدام القافية المطلقة في إيقاعه، واعتماده على تقنية التكرار التركيبي في البيتين الأول والأخير، وشحن ألفاظه بدلالات الانكسار والوجد" يعذبني، فرط، دلاله، هوّن، ارحم، أسى، الباكي، صرعى، قلبي، البائسين، يهفو، مضت، وصاله، الموت، إذلاله، لهفي"؛ يدل على انقباض أنفاسه، وتقطع أوداج عشقه، وشعوره بالبعد والهجر.

ويرصد الشرنوبي معاناته من نفور النساء منه بسبب مرض في وجهه، ويروي في ذلك موقفًا حدث له مع إحدى الفتيات حين رمقها بنظراته، فقالت له : انظر إلى وجهك، فانكفأ على نفسه، وبات يتقلب على جمرات آهاته، وأصبح رهينًا لقلاقله ووساوسه، ونظم قصيدة في هجاء وجهه، يقول فيها:

لك يا وجْهي التعيس هجائي في صباحي ومَغْربي وعشائي

أنت يا متحف الدّمامة والقُبْـ ـح تنزّهْتَ عن صفاتِ البهاءِ

(١)المصدر نفسه: ٢٤٣.

حسبُ عيشي من سوء خلقك نحسًا وبلاءً مزودًا ببلاء
إنّني كلما لقيتُ فتاةً صفعتني بالنظرة الشزْراءِ
وهي لو تنشُدُ الحقائق جُنّتْ بغرامي وتُيّمتْ بلقائي
ورأتني روحا معطّرة الحُسْـ ـن وقلبًا مجمّعا من نقاءِ
غير أنّ العيون كالناس لا تحْـ ـفل إلاّ ببهرج وطلاءِ
فاعفُ عنّي إذا هجوتُك يا وجْـ ـهي فلا زلتُ قدْوة الصُّرحاءِ
إنّ تجهّمتَ فالحياةُ عبوسٌ أو تهلّلتَ فهي نبع صفاءِ [1]

تعكس هذه الأبيات معاناة الشرنوبي الجسدية والنفسية، وفي ضوء ذلك نشأ صراع داخلي بين أحاسيسه:

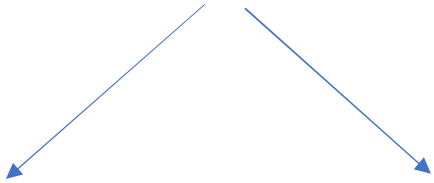

الجانب السلبي **الجانب الإيجابي**

(يوحي بالتسليم بقبحه ونفور النساء منه) (يوحي بالتأكيد على جوهر الروح وصفائها)

وفي النهاية يستسلم الشرنوبي ويعلن انتصار البهرج الزائف، ويدخل نتيجة ذلك في دوامة من القلق.

ويقول الشرنوبي في إحدى قصائده مصورًا انصراف النساء عنه:

وقالت بعينها.. وهبتُ عواطفي لغيرك فاقطع فسحة العمرِ خاليا
وأطرقتُ إطراقَ اليتيم على الأسى وضجّتْ بألحان الثَّكالى سمائيا
وودعت دنياها بشجوي وأدْمعي وهدهدتُ بالصبر الجريح فؤاديا
وقلت لقلبي ربَّما كنتُ مخطئًا طريق الهوى.. أو أنني كنتُ جانيا

(١) المصدر نفسه: ٢٦٥ .

ويا ربّ ليل طـال حتـى ظـننتُهُ خلودًا فكان الفـجر للظـنّ ماحيـا [1]

وظف الشرنوبي حقل الأسى والحزن والتوتر في هذه القصيدة؛ ليشاركه المتلقي مأساته، ويتصور جحيم علاقاته، وتحول النساء إلى غيره، فأشرع في سبيل ذلك مُدية حرمانه، فقطع بها أوداج حبه وأشواقه، واتكأ على الألفاظ التي تواكب كمده وأشجانه، كقوله: " عواطفي، اليتيم، الأسى، ضجّت، ألحان، الثكالى، شجوي، أدمعي، الصير، الجريح، فؤادي، قلبي، الهوى، ليل، ماحيًا".

رابعًا: الأسرة والأصدقاء

صوّر الشرنوبي في دواوينه معاناته من أسرته وأصدقائه، وأفصح عن العلاقة المتوترة بينهم، باكيًا تقطّع أواصر المحبة والوصل التي كانت تربطهم، وهذا التذبذب العاطفي كان سببًا من أسباب قلقه وانطوائه على نفسه.

ويعزف الشرنوبي بسمفونية أحزانه وآهاته، ويصدح بآلام الوحدة والفرقة، ويصف ابتعاد الأهل والأصدقاء عن محيطه، فهجروه وأصبح وحيدًا شريدًا، فارتباط الإنسان بموطن نشأته يمنح النص ديناميكية وحركة باستعادة الماضي وتوظيفه بكل أحواله[2]، وفي ذلك يقول:

أيهـا الراحلـون عـنّي رويـدا فمن الهجر مـا يكـون حـراما..!

أيهـا الراحلـون عـنّي.. وأنتـم صـفوة الكـأس .. لـذةً.. وانسجـاما

أيها الراحلون.. مـا نمـت عـنكم إنّما نمـتُ حـيـرة.. وانحـطـاما

ذكرياتٌ.. أبـكي لهـا .. وأُغنّـي وهي لي بعـدكم هـوى.. ونـداما

أيهـا الراحلـون .. لا تـذكـروني شـادياً يمـلأُ الـدُنى .. أنغـاما

أيهـا الراحلـون .. لا تـذكروا منّـي إلاَّ الأوجـاع .. والأسقـاما ... [3]

تحمل هذه الأبيات صورة من صور جور الزمان وتقلبه على أصحابه، فالشرنوبي عاش حياة مضطربة، تسودها العزلة والإحباط، والنقمة من تغيّر الأحوال، والجفوة من الأهل والأحباب، ولم يعد يتغذى إلا على الذكريات الحزينة ؛ لذا اتكأ على التكرار التركيبي الرأسي " أيها الراحلون" ؛ للدلالة على تغلغل القلق في مفاصل حياته.

(١) المصدر نفسه: ٣٠٩-٣١٠.

(٢) ينظر: باشلار، غاستون، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات ولنشر والتوزيع، بيروت ، ط٢، ١٤٠٤ه/١٩٨٤م، ص: ٣٨.

(٣) الديوان: ٥٣٠- ٥٣١.

ويستمر الشرنوبي في سرد عزلته، وانصراف المحبين عنه، كقوله:

أمـــلي واحـــــة .. وعـــمري صـــحرا ءُ .. وكأُســـــي فيّاضـــــة باللحـــــونِ

والدمـــوع التي غـــسـلْتُ جـــــراحي بنـــــداها .. باتـــــت بغيـــر مـــعيـــــنِ

والطـــريـــــق الـــــذي احتـــــواني ـــــس.. بعيد عن ناظري ..وهـــو دونـــي

والرّفـــــــاق الذيـــن نادمتـــــهمْ كـــأْ ســـي طـــواهم عنّـــي ضـــباب الـــسنـــينِ

صرتُ وحدي وآه من صـــرت وحـــدي ثمّ أوّاه من صـــــداهـــــا الحـــــزينِ[1]

لاتزال براثن الوحدة تنهش بجسد الشرنوبي، ولم يجد من يسعفه من أهله ورفاقـــه، بل تركوه وحيدًا في صحراء بؤسه، يسكب دموعه، ويئن من تبدل الزمان، وانـــصراف الأحباب الذين طواهم ضباب السنين، وهذه الحالة ألقت بظلالهـــا علـــى إيقـــاع أبياتـــه، فاستخدم بكثافة تقنية التدوير، وتقنية الطباق موزعة بـــين الـــصدر والعجـــز " واحـــة، صحراء/ بعيد، دوني/ نادمتهم، طواهم"؛ حتى يتمكن من الـــصدح بآهاتـــه وحـــسراته؛ وينسجم إيقاعه مع مضمون أبياته.

وينظم الشرنوبي قصيدة في أخته البلهاء –كما وصفها– ، ويرصـــد معاناتهـــا فـــي الحياة بسبب إعاقتها الذهنية، ويصب وابل حزنه حين يراها، فينشطر قلبه على وضعها، وما سيؤول إليه مصيرها، فيقول:

أختي قـــصيدة شاعـــــرٍ غـــزلِ أخـــــتي تميمـــــةُ ســـــاحرِ الخَبَـــلِ

أختي هيـــام .. وأنـــت مـــن أملـــي لأنا الحـــــزين عـــــليك يـــا أخـــــتي

***

لأنـــا الحـــزينُ وإنْ طَغـــى فرحـــي وســـكرتُ مـــن صَـــحْبي ومـــن قَـــدَحي

حتّـــى أُحـــسّ كهمْـــسةِ الـــشَّبح وأراك مـــاثـــلـــــة علـــى قـــــرْبِ

فيفيض نبعُ البشـــــرِ فـــي قـــــلبي

وأرى دُعَـــاب الـــصَّحْبِ مـــن ذنبـــي

وأعـــيشُ فـــي دنـــياك يـــا أختـــي

(١) المصدر نفسه: ٥٥٧.

***

وتقـــول أمـــي حـــين تلقـــاكِ يـــا ليـــت قـــلبي مـــا تمنّـــاكِ

أو ليـــت مهـــدكِ كـــان مثـــواكِ لـــك فـــي بنـــاتِ الحـــيّ أتـــرابُ

عرســـانهُنَّ لهـــنُّ أحبـــابُ

فـــأقول والمقـــدور غلّـــابُ

الحـظُّ خانـك أنـت يـا أختـي [1]

يلحظ في هذه الأبيات اتكاء الشرنوبي على تقنية التكرار بكثافة، فكرر لفظة " أختي" في هذا الأبيات ست مرات، كما اعتمد على التكرار التركيبي في الصدر والعجز " لأنـا الحزين" مرتين، إضافة إلى استعماله نمطًا موسيقيًا متنوعًا في بناء قصيدته يتناسب مـع حالته القلقة على مستقبل أخته، وفي استحضار صورة الأم، وحسرتها على حالة ابنتهـا مقارنة بأترابها، دلالة على انفطار فؤاده.

وتناول الشرنوبي في أشعاره مأساته من أصدقائه، وابتعادهم عنه في لحظة الضيق، ومقابلة معروفه بالجحود والنكران، والشروع في إلحاق الأذى به، وتحوّل نعمة الصداقة إلى نغمة الخيانة والخذلان، كقوله:

ذهب الصدق والصديق فـدنيا النّـــ ... ـــاسِ دنيـــا الـــذِّئابِ والأغـــنامِ

كم صديقٍ محّضـته الـوُدَّ صـرفا كـان أقـسى علـيَّ مـن أيّـامي

وصديقٍ سقيـته مـن حـنـاني فـسقاني كـؤوس عـيشٍ زؤامِ

وصـديقٍ جعلـت نفـسي فـداهُ ذائـدًا عـن حياضـه بـسهامي

وصديقٍ حـميـتهُ مـن ضـياعٍ فبنـى صـرحَ مجْـده بحطـامي![2]

نرى في هذه الأبيات اعتماد الشرنوبي على بنية المفارقة في رسم علاقته بصديقه:

الذئاب ← الأغنام

الود ← القسوة

الحنان ← الزؤام

(١)الديوان: ٢٦٠، ٢٦٢.

(٢) المصدر نفسه: ٤٤١ .

الذود ←——— الرمي

الحماية ←——— التخلي

وهذه الصورة المؤلمة تنبئ عن انكسار الشرنوبي، وصدمته من هول ما أصابه من تجاهل وأذى، وتقلّبه على جمر الخيانة والضياع.

خامسًا: الفقر

إنّ المتأمل لحياة الشرنوبي يلحظ تبدل أحواله بعد أن توغل القلق في مناحي حياتـه، وأصبح رهين أوهامه، وتبدّلت أوضاعه من الاستقرار والرخاء إلى معاناته مـن الفقـر والشك وضيق الحال.

وأفصح الشرنوبي في بنية أشعاره عن معاناته من شظف العيش، وصـراعه مـع الجوع، و البحث عن المسكن المناسب، وحارب في كثير من المناسبات الجشع وأسبابه، وصورت أشعاره انعكاسات هذا الفقر على تفاصيل حياته.

ولم يترك الشرنوبي مناسبة شعرية إلا وتحدث فيها عن كابوس الفقر وآثاره، وهـذا التذبذب في الشكوى من الفقر، أو محاولة علاجه ضجّت به دواوينه، ولكنه فـي نهايـة المطاف لم يجد بدّاً من التسليم له، والخضوع لمقاييسه، والرضوخ لأحواله.

ويسرد الشرنوبي في إحدى قصائده قصة اجتماعية تدور أحداثها حول معاناة فتيات جميلات من الفقر، إذ لم يسعفهن جمالهن من التخلص مـن لبـاس الجـوع والخـوف، ويحاول إسقاط حياتهن على واقعه المرير، كقوله:

هَـدمَ الليلُ مـا بـنـاهُ النـهـارُ واستكانـت للظُّلـمةِ الأنـوارُ

ومضى الكـونُ يـشربُ الليـلَ كأسـاً عبقريًّـا حـبَابُه الأقـمارُ

واستحالَ الـضجيجُ صـمتًا رهيبًـا زحمتـهُ الأشـباحُ والأسـرارُ

أين راح النهـار كيـف أتـى الليْـل وفيمَ الإشراقُ؟ فـيمَ الـسرارُ؟[1]

يستهل الشرنوبي بنيته السردية بموجة من الدلالات الغامضة، ويتكـئ فـي سـبيل البوح بها على بنيتي التضاد والاستعارة مما أدى إلى تعدد الأصوات وأشكال الـصراع في بنيتها، حيث خلق التضاد " الليل، النهار، الظلمـة، الأنـوار، الأقمـار، الإشـراق، السرار، الضجيج، الصمت"، جملة من الدلالات المرهفة المنكسرة، التـي تحمـل فـي طياتها تقلب الزمان على أهله، كما منح توظيف الاستعارة بهذه الكثافة المبهمة الحركـة

(١) الديوان: ٢٩٢.

والحيوية في قالبها السردي، إذ أسند الهدم إلى الليل، والرضوخ إلى الأنوار، والشرب إلى الكون، وأسهمت ألفاظ الطبيعة، والمزاوجة بين الأساليب الخبرية والإنشائية في زيادة توتر حبكته وأفكاره.

ثم يلتفت السارد إلى مشهد جديد يصف فيه الصراع الدائر بينه وبين نفسه، يلتقي فيه صوته مع أصوات شخصيات قصته، فيلبس أحدهما قناع الآخر، وشكلت ثنائية القصر والكوخ محورًا جوهريًا في سير بناء أحداثه، كقوله:

قلت يا نفسُ إنّ هذا قضاء قدّرتْه قبل الوجود السماءُ

ما أردتُ الوجود قبل وجودي وبرَغْمي بعد الوجود الفناءُ

وأرى القصرَ توأمَ الكوخ لولا أنَّ هذا فقرٌ وذاك ثراءُ(١)

وفي ضوء هذا الصراع القلق الدائر بين الفقر والغنى، يرتفع صوت السارد صادحًا بأوهامه وظنونه المستحيلة، حتى يداهمه صوت جديد، صوت هاتف يدعوه إلى القناعة بأوضاعه، فالأمنيات لا تغير من الواقع شيئًا، فيرضخ السارد لذلك الصوت، وينطوي على نفسه، وتخبو تطلعاته وأحلامه، وهذا التوظيف لهذه الأصوات، والحوار الداخلي أعاد السارد إلى دوامة القلق والعزلة، وفي هذا يقول:

عشتُ في الفقر كالأميرِ المطاعِ شاعريّ الرّغابِ والأطماعِ

كلُّ دنياي لذّةٌ وجمالٌ وانبعاثٌ إلى الهوى والمتاعِ

وإذا هاتفٌ يهزُّ سكوني أنت أخطأتَ في التمنّي ظُنوني

قلتُ يا نفس قالت النفس: دَعني ما تمنّيتُ غيرَ ماءٍ وطينِ

ذلك القصرُ والنَّدامى هباءٌ حين تصحُو على صُراخِ المنونِ(٢)

ويحاول الشرنوبي في بعض قصائده القلقة المزج بين الفقر والحب، ويرسم في ضوء ذلك لوحة شعرية خيالية، يستوحيها من أوهامه المتواصلة، ويلونها وفق أحاسيسه المتشتتة، وتحمل في مضمونها قصة حب دارت بينه وبين فتاة غنية، آثرت حبه على أسرتها ومالها، ونتج عن ذلك صراع بين الطبقتين، ينتصر فيه الحب على الفقر، كقوله:

وطاوٍ على الفقر أيّامه يحبّ!! فيا للهوى المتعبِ

(١) المصدر نفسه:٢٩٤ .

(٢) المصدر نفسه: ٢٩٦، ٢٩٨.

رأى بنـــــت ســـــيّدهِ مـــــرةً فقـــال هنـــا غـــــاية المَطـــلبِ
وراح يـــــصـــــبُّ أمـــانـــــيّهُ أغـــــاريدَ فـــي نايـــهِ المـــطـــربِ
تئنُّ مـــن الـــجـــوع أمعـــاؤُه بكـــاءً علـــى جوفـــه المُجْـــدبِ
فيحـــسبهُ مـــن أنـــين القـــلوبِ إذا احترقـــتْ بالـــضّنى المُلهـــبِ

* * *

وأعـــجبُ منـــه ابـــنة الـــسيّدِ تبيـــعُ الغـــنَى بالغـــرامِ الـــصَّدِي
رأت فيـــهِ فـــوق معـــاني الـــشباب ذراعـــا أشـــدُّ وصـــدرًا نـــدي
وبـــين زواجهـــما حـــائلان مـــن الحـــسب الـــضَّخم والمحْتـــدِ
ولكنّـــه الحـــبّ قـــاسٍ عنـــيد ولا بُـــدَّ للـــسهم مـــن مـــنفَدِ(١)

وفي هذا التكنيك السردي الذي يقوم على الحدث والصراع والحوار وتعدد الأصوات والشخصيات وتنوع الإيقاع – دلالة على شرود الشرنوبي، ومحاولته الهروب من واقعه.

ويأتي شهر رمضان المبارك فيصدح الشرنوبي بمعاناته من الفقر والجوع، ويذكر من حوله بأوضاعه ، فيستغل هذا الشهر في وصف بؤسه وحزنه، فهو يعاني من صيام جسده المتواصل عن الأكل، ومن صيام روحه عن السعادة والأمل والتفاؤل، فيقول مخاطبًا جاره:

ولكنـــي عـــلى عـــينيـــ ـــك أشـــكو ظلـــم أيّـــامي
يمـــرُّ الـــشّهـــرُ بعـــد الـــشّهْـــ ـــر والعـــام مـــع العـــامِ
ولا تـــســـمـــع أنّـــاتي ولا ترحـــم آلامـــي
أجـــوع.. وفـــي يديـــك الخبْـــ ـــز.. أعجـــنه بأحـــلامي
وأدحـــوهُ بآهـــاتي وآكـــلـــه بأوهـــامي

***

ويـــا جـــاري أتـــى الـــشّهـــر الّـــ ـــذي أعرفـــه وحـــدي

(١) المصدر نفسه:٣٣٩ .

فعمـــــري كـــــلُّه رمـــضـا ن .. حرمـــــــانٌ ... بلاحـــــــدِّ

فهـــل تعـــلم مـــا أُخـــفي مـــن الحـــزن ومـــا أُبـــدي

أخـــــاف إذا أتـــى العيـــد كمـــا جـــاء علـــى ولـــدي

وعنـــدك كـــلّ مـــا تـــرجـــو وفقـــري.. كـــلّ مـــا عنـــدي[1]

تكشف هذه الأبيات عن تغلغل اليأس في أعماق الشرنوبي؛ لذا اتجه إلـى خطـاب جاره، وبدأ في لومه على تقصيره، والبعد عن مساعدته، فجاره يرقد آمناً مطمئناً شـبعًا، وهو يئن من وطأة الأيام وقسوتها، ومن تسلط الفقر، وتراكم الأوهام والأحزان، فحياتـه على الحقيقة كلها رمضان، واعتماده على الألفاظ الموحية بالانكسار" أشكو، ظلم، أناتي، آلامي، أجوع، أحلامي، آهاتي، أوهامي، وحدي، حرمان، الحـزن، فقـري"، و تقنيـة الصمت، وظاهرة التدوير، والتكرار في قوله:" الشهر ثلاث مرات، العام مرتان"،– خلق تساوقاً بين الإيقاع والدلالة.

(١)الديوان: ٥٠٢-٥٠٣

المبحث الثاني: دلالات القلق في شعر صالح الشرنوبي

إنّ تنوع دلالات القلق في شعر الشرنوبي واختلاف أنماطها: النفسية والدينية والاجتماعية والرمزية، أضفى على أشعاره مسحة ألم، وموطن شجن، وبعث فيها روحًا قلقة تنشد الخلاص من عالمها المزدوج بين الألم والأمل، والدراسة الموضوعاتية تتبع الوحدات الدلالية المنسجمة مع الموضوع الرئيس.(١)

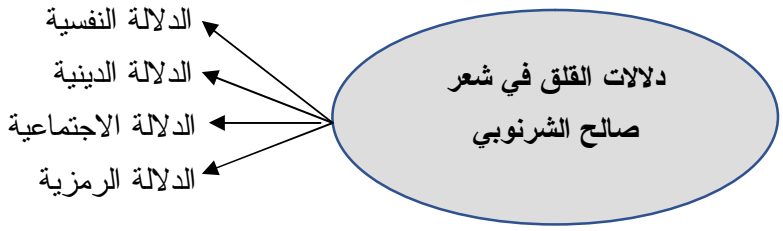

- **أولًا: الدلالة النفسية :**

جاءت ظاهرة القلق في شعر الشرنوبي محمّلة بدلالات نفسية متعددة، انعكس صداها على لغته وأساليبه وصوره، فتوشّحت بوشاح الشك والخوف والعزلة، فالشاعر المعاصر يصدح عمّا في دواخله بما يجري على لسانه من أبيات تتوافق مع أشجانه(٢)، فنراه أحيانًا يسرف في توظيف طاقة الانفعال في بنيته الشعرية؛ إشارة إلى انعدام التوازن في حياته الوجدانية(٣).

وقد تنوعت المؤثرات التي أسهمت في تكوين نفسية الشرنوبي، فالحديث عن القلق في أشعاره له دلالاته الحزينة، وتكراره بصورته القاتمة ألقى بظلاله الكئيبة على ألفاظه، ولعل الظروف التي نشأ فيها الشرنوبي كانت لها ارتداداتها النفسية القوية على تعابيره وتراكيبه.

والمطلع على حياة الشرنوبي يلحظ صراعه مع ذاته، والميل إلى العزلة، والخضوع إلى الوساوس، وبروز معالم التوتر النفسي على ملامحه، فمن طبيعة الشاعر الرومانسي الميل إلى الخلوة والبعد عن الناس(٤) ، ولعل انشطار نفس شاعرنا بين الريف والمدنية، وصدمته من عالمه المتناقض خلق هذا النوع من القلاقل، فأدخل على إثر ذلك

(١) ينظر: لحمداني، حميد، سحر الموضوع، عن النقد الموضوعاتي في الرواية والشعر، منشورات دراسات سيميائية أدبية ولسانية (دراسات سال)، فاس، المغرب، ط٢، ٢٠١٤م، ص: ٥٣.
(٢) ينظر: ضيف، شوقي دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف القاهرة، ط١٠، ٢٠٠٣م، ص: ١٤١.
(٣) ينظر: الملائكة ، نازك، قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ٢٠١٤م، ص:٣٤١ .
(٤) ينظر: هلال، محمد غنيمي، الرومانتيكية، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨١، ص: ١٥٣.

مستشفى الأمراض العقلية مرارًا، وعلى الرغم من ذلك ظل ينظم أشعاره التي تصوّر محنته[1]، كقوله:

تمرُّ بيَ الأيامُ مشلولةَ الخطى وتأْكلني الأقدارُ مسعورةً حَرَّى
وأَسألها عمَّا اقترفتُ حيالها وقد يسأل العلّامُ منْ يجهل الأمرا
وما هي إلا توأمي في مدارها كلانا يُقاسي القيد والرّغم والقهرا
وأطرق ماضي العمر حزنًا وحيرةً فما زادني عرفا.. ولا زادني نكرا
وما هي إلا كرَّة الوهم طائفًا وخلَّفني المسكينُ أسيانَ مُزورًّا[2]

ترصد هذه الأبيات حالة الشرنوبي النفسية، وصراعه مع الدهر، واستسلامه في المنعطف الأخير لقضائه، ووظف في هذا البناء الصور المرعبة، فشبه الأيام بالإنسان العاجز عن السير، والأقدار بالوحش المفترس، والوهم بالإنسان الطائف الذي يحمل بين جناحيه البؤس ، واستعمل الألفاظ المشحونة " يقاسي، القيد، الرغم، القهر، الحزن، الحيرة، الوهم، المسكين، أسيان، مزور"، فنتج عن هذا التركيب والأسلوب اضطراب في المبنى والمعنى.

ويصف الشرنوبي في قصيدة " **ذبول**" ذبول عمره وانقلاب أحواله وتفتت مشاعره، كقوله في بعض مقطوعاتها:

بين صبحٍ مُسَهَّدِ الأنداءِ
ومساءٍ معذَّبِ الأضواءِ
واحتراقي وَوَحدتي وبُكائي
ذَبُلتْ زهرة الصّبا والشبابِ

****

يا ربيعَ الغرامِ أين غرامي
كيف ماتتْ على فمي أنغامي
وتهاوتْ على يدِي أحلامي

(١) ينظر: الديوان: ٢٦ .
(٢) المصدر نفسه: ٤١٠-٤١١ .

وَذَوَتْ زهـــــرة الـــــصّبا والـــــشَّبابِ[1]

طوّر الشرنوبي هذا الشكل الهندسي الإيقاعي في بناء قصيدته؛ حتى يتواءم مع دلالاتها:

.....أ
.....أ
.....أ
.....ب

ويلحظ في هاتين المقطوعتين اختلاف حرف الروي، حيث جاء حرف الروي في المقطوعة الأولى الهمزة المردوفة بالألف الموصولة بالياء، والهمزة من الحروف الحلقية التي تفصح عن حشرجة وحسرة ، وحين انتقل الشرنوبي إلى الحديث عن الغرام والحب جعل روي المقطوعة الميم المردوفة بالألف الموصولة بالياء، والميم من الحروف التي تحمل في مضمونها دلالات الأسى والحزن، كما أنهى كل مقطوعة منهما بحرف الروي الباء المردوفة بالألف الموصولة بالياء، والباء حرف جهوري يفصح عن رغبته في الصدع بأناته.

وفي اتكاء الشرنوبي في هاتين المقطوعتين على الطباق" صبح، مسهد، مساء، الأضواء"، والاستفهام " أين، كيف" ، وحقل القلق" معذب، اختراقي، وجدتي، بكائي، ذبلت، الغرام، ماتت، تهاوت، أحلامي، ذوت"، واختياره مفردة " ذبلت" في نهاية مقطوعته الأولى، ومفردة ذوت" في نهاية مقطوعته الثانية– يفصح عن تبعاته النفسية المضطربة.

ويوجه الشرنوبي خطابه إلى الناس؛ صادحًا بأناته وجروحه؛ وعازفًا على ناي دموعه وتبدد أحلامه؛ وناثرًا عواطفه المتقلبة على نار أشجانه، فيقول:

فـــي لحـــونـي أيّهـــا النّـــاسُ دمـــوعٌ وجـــراحْ
فاسمـــعوها أو فَـــصَمُّوا فلـــسَلواي النـــواحْ
قبـــل أن تُـــسْلـمَني الأرْ ضُ إلـــى كـــفّ الريـــاحْ

(١)المصدر نفسه: ٢٤١ .

فـــأرى فـــي الكـــون نـــورَ اللّـــــ ... ـــــــــه لا نـــورَ الـــصـــباحْ[1]

- **ثانيًا: الدلالة الدينية:**

عصفت بالشرنوبي جملة من القلاقل والفتن والمحن، وظل متقلبًا على جمر أوهامه وشكوكه، تارة يرضى بما كُتب له، وأخرى يظهر تبرّمه وجزعه على أوضاعه، وقد صوّر هذا التردد في بنية أشعاره.

والشرنوبي نشأ نشأة دينية، وحفظ القرآن الكريم في مرحلة مبكرة من عمره، وتعمّق في دراسة العلوم الدينية، وكان متسامحاً مع الأديان الأخرى، كما تأثر في بعض منعطفات حياته بالنظريات الفلسفية الحديثة.[2]

والصراع النفسي الذي يكابده المبدع نتيجة الكبت أشد إيلاماً من الأحزان الأخرى[3]، وهذا الطوفان من الشك والوسواس عمّق من صلة الشرنوبي بربه، فبعث قصائده الروحانية الدالة على صفاء روحه في بحر هواجسه، كقوله في قصيدة " **نشيد الصفاء**":

يا نصيري إذا دَهـــتْني الـــرّزايا وأنيـــــسي فـــي وحـــدتي ونجـــيِّ

يا حبيبًا أغنى فؤادي عـن كـــــــ ... ـــــــلّ حبيـــبٍ وصـــاحبٍ وصـفيِّ

أنت فـــــجرٌ أطـلَّ والليـــــلُ داجٍ فمـــــحا الليـــل بالـــشعاع الـــسنِّي

أنت من ذكـره علـى القلـب أنـدى مـــن نـــدى الفجـــر والنّـــسيم الرخـــيِّ

أنت ألهمتني الصفاءَ على الـــكـــر ب فأصبـــــــحتُ كالـــشعاع النقـــيِّ

أنت علَّمـــتني الجـــلاد إذا مـــا أوهـن الـدّهـــر جـــانحي بالقـسيِّ[4]

حين أظلم الكون في محيط الشرنوبي، وأغلقت أبواب الأمل في وجهه، نظم هذه القصيدة موجهًا الخطاب فيها إلى النبي محمد – صلى الله عليه وسلم–، فبذكره تتحول حياته من الوحشة والهم والوحدة إلى الأنس والأمل والضياء، ومن مدرسته يتعلم الصبر على الكرب والجلاد في هذه الحياة، فهو الفجر الذي أزال كل غمة وظلمة، وفي توظيف النداء في مطلع البيتين الأولين، وتكرار الضمير المنفصل "أنت" أربع مرات

(١) الديوان: ١٧٩ .
(٢) المصدر نفسه: ٢٠-٥٠.
(٣) ينظر: درو ، إليزابث ، الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، ترجمة: محمد إبراهيم الشوش، منشورات مكتبة منيمنة، بيروت، ١٩٦١م، ص: ١٧٠.
(٤) الديوان :١٤٧ .

بشكل رأسي، دلالات على رغبة الشرنوبي الهروب من واقعه والتحليق في سماء الروحانية.

وتشتد أزمة الخوف من المجهول عند الشرنوبي، فيلجأ إلى ربه متأملاً خروجه من هذا الواقع المتأزم، كقوله:

مولاي والأيّام ينضبُ جامُها وتموتُ دون تمامها أحلامها

يا من تقرّبني إليه مخاوفي ويردّ نفسي عن حماه غمامها

هذا وجودي ليله ونهاره هذي حياتي نورها وظلامها

صبحٌ تبغّضه إليَّ مطالبٌ للعيش في كفّ الغيوب زمامها

ودُجىً كئيب الصمت مرتاع الرؤى شابتْ كواكبه وطاب مقامها

لا الصبح يهديني الطريق ولا الدّجى تعستْ حياة لا يقرّ نظامها

تتواثب الآلام في آفاقها غرقى ومن ميت الضلوع طعامها

حرق على حرق يضيق ببعضها صبر الأنام ولا أزال أُسامها

يا ربّ.. هذي الدار ملّ نزيلها فسلامها ألّا يدوم سلامها[1]

تقوم هذه القصيدة على بنية المقابلة، وتصور الصراع بين ثنائية الليل والنهار من واقع حياة الشرنوبي، فالنهار ميدان الشقاء والفقر، والليل يوطّد الحزن والكآبة، فلا الصبح يمنحه الدفء والأمل، ولا الدجى يجد فيه الراحة والطمأنينة، واعتماده بكثافة على التكرار والاستعارات والألفاظ المشحونة بالخوف يفسر لجوءه في نهاية المطاف إلى ربه.

وعندما ادلهم خطر الشك المفضي إلى المرض والوهن في روح الشرنوبي نظم إحدى قصائده مناجيا ربه، فقال:

رباه .. هذا أنا في زورقي عبدك .. فاصفح إن لساني عثرْ

أفرغت كأسي .. من رحيق المنى فقد وجدتُ اليأس عين الظّفرْ

كانت لنفسي مثل غيري.. منىً يتيمة عذراء .. مثل الدّررْ

(١) المصدر نفسه: ٣٧٥.

أفنيتُ عـــــمري.. أتغـــنى لهـــا ما تلهـم الـشمس ويوحـــــي القمـرْ
حتى جـرى مـا أنـــــت أدرى بـــه أستغـــــفر الله وأشكـــــو القـــــدرْ
فعدتُ والحـسـرة فـي أضـــــلعي محطّـمَ العـــود.. عيـيَّ الـــوتـــــرْ
ألـتهم اليـــأس.. وأحـشـو بـــــه فمَ النّـصـيحِ الفـــدْمِ.. إمّـا هـــــذرْ
وكلّمـــا ســـاءلني صـــاحـــب مـاذا تـــرجّى فـي الغـــد المنتـــظرْ
أقـول مـا يرضـيك يـا خـــالقي ويسحـقُ الوهم.. ويفـــني الـضَّـجرْ
الحمـد لله علـى مـا قـــضـى والـشـكـر لله علـى مـا أمـــرْ[1]

نجد في هذه الأبيات صراعاً بين الشرنوبي وذاته، هذا الصراع زاد من حالة الشك والحيرة عنده، فاتكأ على القافية المقيدة، ووظف ظاهرة الصمت بكثافة، واستعار ألفاظه من حقل القلق تارة كقوله:" زورقي، اليأس، يتيمة، أفنيتُ، أشكو، الحسرة، أضلعي، محطم، عيّ، الوتر، اليأس، أحشو، يسحق، الوهم، يقني، الضجر"، وأخرى من حقل الدين كقوله:" رباه، عبدك، فاصفح، أستغفر، الله، القدر، خالقي، الحمدلله، قضى، الشكر لله، أمر"، وهذا الأسلوب ينبئ عن حالة من التوتر يعيشها الشرنوبي.

- **ثالثًا: الدلالة الاجتماعية:**

استطاع الشرنوبي في أشعاره تصوير الصراع المستمر بينه وبين مجتمعه، وكان لانتقاله من حياة الريف وبساطتها إلى المدنية وعواصفها الأثر الأبرز في حياته، فحين تكالبت عليه الهموم والقلاقل لم يجد منفذاً يستطيع اللجوء إليه، فالمجتمع بأدواته المختلفة كان سيفًا صارمًا بتر كل أحلامه وأمنياته، ووقف عائقاً أمام رغباته وأغنياته، فحين يفقد الشاعر هويته في مجتمعه ينشأ الصراع بينهما.[2]

وقد اتصل الشرنوبي بمجتمعه، وتناول في بنية أشعاره الأحداث الاجتماعية بمختلف جوانبها، وصوّر صراعه مع فئات المجتمع، والتقطت عدسته كل مظاهر التوتر والحزن التي فتكت بعلاقته مع بيئته.

ويصف الشرنوبي ظلم مجتمعه وقسوته على بعض أفراده، فحين وقعت عيناه على تلك الطفولة البائسة المشردة التي تبيع أوراق اليانصيب في الطرقات، وقف باكيًا حالها،

(١) الديوان: ٤٦٩.

(٢) ينظر: عباس، إحسان، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، رقم (٢) ١٩٧٨م، ص: ٢٠١ .

وراثيًا واقعها، وفي هذا يقول:

ألقـــت عليـك الليـالي ثوبهـا وضـعتَ مـا بـين تجـوال وتـسآلِ
أيامك السـود عِـقْد ضلَّ ناظـمه وجيـدُ عمـرك مذبـوحٌ كآمـالي
ويحي عليك هشيـمًا ضمّه كفـنٌ ودُرَّةٌ غيّبـت فـي قـبر أوْحـالِ
ويحي عليك وويحي منك ما وهنـت مـن نـار بلـواك أصـلابي وأوصـالي
أنا الذي ضـاقت الـدنيا بفـرحتهِ ولـم تـضق بجراحـاتي وإعـوالي

***

تكفيك منّي دمـوعًا ليس تكـفيني والـدمع ينقـع أكبـاد المـساكينِ
أبكيك طفل الأماني قـام هيكـله علـى عمـادٍ كـذاوي الزهـر موهـونِ
أبكيك دون ودادٍ غـير أنّ دمـي تعيـث فيـه المنايـا عيـث مجنـونِ[1]

إنّ حالة القلق التي هيمنت على جوارح الشرنوبي دفعته إلى الوقوف عند كل موقف مؤلم في زوايا مجتمعه، يتأمّله ويرصد تفاصيله الدقيقة، ففي الأبيات السابقة نلحظ توظيفه للألفاظ والصور الباعثة للحزن والوجع، فالليالي ألقت بثوبها البالي على حياة هؤلاء الضحايا، وانفرط عقد أيامهم السود، ونُحرت آمالهم وتطلعاتهم، فأصبحوا كالهشيم الذي تذروه الرياح، وحفرت قبورهم أمام أعينهم، وذوت زهرة طفولتهم.

واستطاع الشرنوبي في بنية أشعاره وصف علاقته المضطربة مع بعض أفراد مجتمعه، وبيان أسباب هذا الفتور فيما بينهم، فقال:

أنـا للنـاس قـد خُلقـتُ فمـا أرْ جـو لنفـسي إلا الـذي يُفـضلونا
ولقـد أسـكبُ الدُّمـوع لبَلْـوا هـم وهُـم فـي مَنَـاحتي ضـاحكونا
ربَّمـا فوَّقـوا الـسهـام لقتـلي فرأَوْنـي أبـاركُ القـاتليـنا
غـير أنّـي أحبُّهـم وأرجِّـي لهـم الخـيرَ والهـدى واليقينـا
وأراهـم كـأنّهم فـي وجـودي خطـراتٌ تـأبى علـيّ الـسُّكونا[2]

(١) الديوان: ١٦٣-١٦٤ .
(٢) المصدر نفسه: ٣٥٩ .

إنّ صورة المفارقة التي رسمها الشرنوبي بينه وبين الناس توحي بمدى صبره، ورغبته في الاندماج مع مجتمعه، وتجاوز الهنات التي تقع منهم، وإظهار الخير والحب لهم، ومع ذلك استمر هؤلاء في الطعن به، ومحاولة إبعاده عنهم، وتركه وحيدًا بلا وصل، وجاءت صورة المفارقة في هذه الأبيات على هذا النحو:

الشاعر ← الناس (المجتمع)
الحزن على أوجاعهم ← الفرح في حالة حزنه
الصبر على تجاوزاتهم ← محاولة وأد وصله
محبة الخير لهم ← تمني الشر له

ويتطرق الشرنوبي في قصيدة " **المجنون**" إلى وصف معاناة المجانين من بعض أفراد مجتمعهم، ومحاولة إيذائهم، وقطع طرائق الوصل فيما بينهم، ويسقط حالتهم على أوضاعه، كقوله :

نسميه مجنوناً فنحصب رأسهُ وفي رأسه ثارتْ عواصف من عقلِ
تنوح فتصليهِ لظًى من نواحها فيشرد ملتاث الخُطا كبني النملِ
يخال سرابًا سائلًا من سمائهِ وما في سماءِ الأرض شيءٌ سوى المحْلِ
وينظر أرض الناس وهي جديبةٌ فيحسب أرض الناس وبلًا من الوبلِ
فيهذي بألحانٍ تمزّق شملها وليس لها في آخر العمر من وصلِ
فيا ليت هذي الناس جن جنونهم فكانوا عن الرّقطاءِ والُّسمِّ في شغلِ
ولكنّهم جُنُّوا بطينٍ مرقّشٍ فصانوه عن نار الحياة التي تغلي[1]

يسرد الشرنوبي في هذه الأبيات الصراع الذي دار بين هذا المجنون ومجتمعه، حيث عانى من النفي والطرد والاعتداء، وظل وحيدًا يقلب طرفه في هذا الفضاء، وفي هذا البناء السردي رؤية اجتماعية وفلسفية يقدمها السارد في قالب المفارقة، حيث تتداخل الأصوات، صوت المجتمع الذي يهاجم هذا المجنون، ويتندّر من بعض تصرفاته، وصوت السارد الذي يدافع عن هذا المجنون، ويلقي اللوم على مجتمعه، وأسهمت كثافة الجمل الفعلية في بث الحيوية والحركة في بنية قصيدته.

(١) المصدر نفسه: ١١٢ .

- **رابعًا: الدلالة الرمزية:**

وظف الشعراء في العصر الحديث تقنية الرمز في بنية أشعارهم بكثافة؛ بغية تلوين أساليبهم؛ واستجلاب دلالات جديدة تتواءم ومتطلبات عصرهم، ونوازعهم النفسية المتقلبة، فالنص الشعري يصبح أكثر إثارة إذا تآزرت فيه الرموز المختلفة وتمكّنت من بث الروح في بنائه الشعري بما يتواءم مع التجربة الشعرية(١).

والشرنوبي واحد من هؤلاء الشعراء الذي امتطوا الدلالة الرمزية بمختلف صورها، حيث شكّلت ظاهرة بارزة في بنية قصائده، استطاع بوساطتها التحليق في فضاء قلاقله، والتعبير عن مأساته ووحدته، والرموز التي وظف دلالاتها هي:

إنّ نشأة الشرنوبي في بيئة محافظة أسهمت بشكل مباشر في تكوين ثقافته الدينية التي أدت إلى توظيف الرمز الديني بدلالاته المتعددة بكثافة في بنية أشعاره، فاستخدم رمزية آدم وحواء وموسى – عليهم السلام–، ورمزية الشيطان وقابيل وهابيل والسامري... وغيرهم.

وتأتي رمزية آدم وحواء في مقدمة الشخصيات الدينية التي اتكأ عليها الشرنوبي، فقد اتخذ من قصة هبوطهما إلى الأرض، وما صاحبه من أحداث بعد ذلك وسيلة رمزية؛ لنثر عواطفه الذابلة في بنية قصائده، وبخاصة تلك القصائد التي يعالج فيها صراعه مع المرأة، كقوله:

حوّاءُ !ما طابت النَّجوى لمنتحبِ عُودي إلى آدمٍ في التّيه مغتربِ
لم يُنسه الفنُّ أنّ الحبَّ خالقُهُ وأنّ أمواجه في الحبِّ كالحَببِ
وكيف يَنسى وفي عينيهِ جائعةٌ أرادها اللهُ أن تقتاتَ بالنُّوبِ(٢)

(١) ينظر: أحمد، محمد فتوح، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، مصر، ١٩٧٧م، ص:١٤١– ١٤٢ .
(٢)الديوان: ٢٥٦ .

ويستحضر الشرنوبي قصة قابيل وهابيل، ويسقطها على واقع عصره، ويرمز بها للدلالة على معاناته من مجتمعه الذي يعاني من التصدعات والصراعات بين بعض أفراده، كقوله:

الأرض ما زالتْ كعهدك مسرحا للقصة الملعونة الشوهاءِ

والنّاس قابيلٌ وهابيلٌ وما من آدم فيهم ولا حوّاءِ

يتهافتون على الحطام وربّما شربوا السّموم ليظفروا بدواءِ[1]

ويستدعي الشرنوبي شخصيتي " قيس" و" ليلى" من التراث العربي في سياق الحب واللوعة، ويسقطها على معاناته من العشق، وظمأ مشاعره وأحاسيسه، وفناء كل الآمال والأمنيات، فالشاعر المعاصر يوظف هاتين الشخصيتين – غالبًا– في سياق القضايا العاطفية، ويوظفهما بما يتلاءم مع وجدانه وحبّه.[2] فيقول شاعرنا مشبهًا نفسه بقيس ومحبوبته بليلى:

آه من فتنة تهزُّ وجودي وتشبُّ النيران في أصغريّا

أنا قيسٌ ليلاه في كلِّ ليلى وهواهُ المشاعُ لم يكُ غيّا

أرصدُ السُّبل ربمَّا لاحَ بدرٌ فأنارَ الوجودَ في ناظريّا

وأريدُ الحياة خمرا وشعرا وغراما مطهَّرًا عبقريّا

ثم تمضي الأيّام بي ظامئ القلب ولمّا أُفْنِ الطريق مضيّا

لا هوًى يرعشُ الجفون خشوعا ويُفيض الإلهام شعرًا رَويّا [3]

والشرنوبي شاعر رومانسي يلجأ –كغيره من الشعراء الرومانسيين– إلى الطبيعة، ويتخذها رمزًا لمشاعره، فيحاورها ويناجيها، ويبث في أرجائها أغانيه وأحلامه، ويشكو إليها من جور الزمان وتقلباته، ويهيم في فضائها، ويشاركها أفكاره وتطلعاته، ويشعر بأنها جزء منه، تبوح إليه بأسرارها وجمالياتها، وتستمع إلى شدوه وأنينه، كقوله:

(١) المصدر نفسه:٥٠٦ .

(٢) ينظر: زايد، علي عشري، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٧ه/ ١٩٩٧/ ص: ١٤٤– ١٤٥.

(٣) الديوان: ٢٢٦ .

وفي الكــوخ .. حيــث تقــيم المحــنْ على ســـاكنيهِ ليـــالي الـــشـجنْ

براعـــمُ لـــم تحتــضنْها الرّيـــاض ولا نـــشقتْ غيـــر ريـــح الـــدِّمنْ

يمـــوت النَّـــدى فـــوق أوراقـــها وينكرُهـــا الغيـــث إمَّـــا هـــتنْ

وتقتلهـــا العاصفـــاتُ الـــشدِّاد فيـــدفنها القـــفرُ فيمـــا دفـــنْ

وكـــلّ جـــنايـــتهـــا أنّهـــا تريـــدُ الحيـــاة فيـــأبى الـــزمنْ [1]

وظف الشرنوبي عناصر الطبيعة" الكوخ، ليالي، براعم، الرياض، ريـح، الـدمن، الندى، أوراقها، الغيث، العاصفات، القفر، الزمن"، في سياق البوح بأشجانه، والهـروب من عالمه المتقلب، وتصوير معاناته مع الزمن، وتحويل الطبيعة من كونها عنصرًا حيًـا إلى عنصر ميت، له دلالاته القلقة، وهذا الأسلوب مـن أسـاليب الرومانـسيين حـين يشعرون بالضجر من حياتهم.

(١) المصدر نفسه: ٣٣٢ .

الخاتمة

رصدتُ في هذه الدراسة ظاهرة القلق في شعر صالح الشرنوبي، وعالجتها وفق المنهج الموضوعاتي، وبينتُ أسبابها، وتناولتُ موضوعاتها، وتتبعتُ دلالاتها، وقد خلصتُ إلى النتائج الآتية:

- عانى صالح الشرنوبي من القلق ومظاهره في حياته، وانعكس ذلك على بنية أشعاره التي شحنها بدلالات الوحدة والإحباط والانكسار.
- تعدد الموضوعات الفرعية التي تغذي الموضوع الرئيس" **القلق** "في شعر صالح الشرنوبي.
- نتج عن القلق المحيط بالشرنوبي تعمّق الاغتراب النفسي والزماني والمكاني في بنية أشعاره.
- إنّ شعور الشرنوبي بالقلق والحيرة أدّى إلى انتشار مفردة الموت بمختلف صورها في بنية أشعاره.
- استطاع الشرنوبي في بنية أشعاره تصوير قلاقله التي نتجت عن علاقته المحبطة بالمرأة، ونفورها منه، وانصرافها عنه، وتعمّد صدّها وهجرانها.
- عاش الشرنوبي حياة معقّدة، اتسمت بالصراع مع أسرته وأصدقائه، وقد أبان عن ذلك في بنية أشعاره التي تعج بالأسى والقلق.
- من العوامل التي أسهمت في تسلسل القلق في حياة الشرنوبي صراعه مع الفقر بمختلف أشكاله، وقد صوّر ذلك في بنية أشعاره.
- تنوع دلالات القلق في شعر صالح الشرنوبي.
- نتج عن القلق الدائم عند الشرنوبي انعزاله وشعوره بالوحدة والخوف؛ مما أدى إلى كثافة الألفاظ الموحية بالألم والوجع في بنية أشعاره.
- يلحظ في بنية أشعار الشرنوبي كثافة الدلالات الدينية التي وظفها من أجل التخفيف عن هواجسه وشكوكه.
- عمد الشرنوبي في بنية أشعاره إلى تصوير زوايا مجتمعة بعدسة قلاقله وهمومه.
- لجأ الشرنوبي في بنية أشعاره إلى توظيف الدلالات الرمزية التي تواكب أحزانه وقلاقله.

ثبت المصادر والمراجع

- **أولًا: المصادر:**

- الشرنوبي، صالح، ديوان صالح الشرنوبي، تحقيق: عبدالحي دياب، مراجعة: أحمد كمال زكي، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٦م.

- **ثانيًا: المراجع:**

- آل جندي، أدهم، أعلام الأدب والفن، مطبعة مجلة الاتحاد، دمشق، ١٩٥٨م.
- أحمد، محمد فتوح، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، مصر، ١٩٧٧م.
- إسماعيل، عز الدين:
- الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، ط٣، ١٩٨١م.
- التفسير النفسي للأدب، مكتبة غريب، القاهرة، ط٤، ١٩٨٤م.
- بارجاس، دانيال، وآخرون، مدخل إلى المناهج النقدية في التحليل الأدبي، ترجمة: الصادق قسومة، مطبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط١، ١٤٢٩ه/ ٢٠٠٨م.
- باشلار، غاستون، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات ولنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، ١٤٠٤ه/١٩٨٤م.
- حسن، عبدالكريم، المنهج الموضوعي نظرية وتطبيق، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٤١١م/١٩٩٠م.
- الحنفي، عبد المنعم، المعجم الموسوعي للتحليل النفسي، دار نوبليس، بيروت، لبنان ، ط١، ٢٠٠٥م.
- درو، إليزابت ، الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، ترجمة: محمد إبراهيم الشوش، منشوات مكتبة منيمنة، بيروت، ١٩٦١م.
- راستيي، فرانسوا، فنون النص وعلومه، ترجمة: إدريس الخطاب، دار توبقال للنشر، الدرا البيضاء، ط١، ٢٠١٠م.
- زايد، علي عشري:
- استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٧ه/ ١٩٩٧.
- عن بناء القصيدة العربية الحديثة، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ط ٤، ١٤٢٣هـ /٢٠٠٢م.
- الزركلي، خير الدين الأعلام – قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢م.

- ضيف، شوقي دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف القاهرة، ط١٠، ٢٠٠٣م.
- عباس، إحسان، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، رقم (٢) ١٩٧٨م.
- العجلان، سامي بن عبدالعزيز ، إغواء العتبة عنوان القصيدة وأسئلة النقد، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت– لبنان، ط١، ٢٠١٥م.
- علوش، سعيد، النقد الموضوعاتي، شركة بابل للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، ١٩٨٩م.
- القط، عبد القادر، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٨م.
- لحمداني، حميد، سحر الموضوع، عن النقد الموضوعاتي في الرواية والشعر، منشورات دراسات سيميائية أدبية ولسانية (دراسات سال)، فاس، المغرب، ط٢، ٢٠١٤م.
- مجموعة من الكتاب، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ترجمة: رضوان ظاظا، مراجعة : المنصف الشنوفي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، رقم (٢٢١)، ١٩٩٧م.
- الملائكة ، نازك، قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ٢٠١٤م.
- مندور، محمد، الأدب وفنونه، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط٥/ ٢٠٠٦م.
- هلال، محمد غنيمي، الرومانتيكية، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨١م.
- وغليسي، يوسف، التحليل الموضوعاتي للخطاب الشعري– بحث في ثوابت المنهج، وتحولاته العربية، ومحاولات لتطبيقه، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط١، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.